من ورع ابن المسيب

قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب[1]، ففقدني اياما، فلما جئته قال: أين كنت، قلت: توفيت أهلي فاشتغلت بها، فقال: هلا أخبرتنا فشهدناها، قال: ثم أردت أن أقوم، فقال: هلا أحدثت امرأة غيرها، فقلت: يرحمك الله ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة، فقال: إن أنا فعلت تفعل، قلت: نعم، ثم حمد الله تعالى وصلى على النبي وزوجني على درهمين أو قال ثلاثة، قال: فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح، فصرت إلى منزلى وجعلت أتفكر ممن آخذ وأستدين، وصليت المغرب وكنت صائما فقدمت عشاى لأفطر وكان خبزا وزيتا.

وغذا الباب يقرع، فقلت: من هذا؟ قال: سعيد، ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم ير منذ أربعين عاما إلا بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت وإذا بسعيد بن المسيب فظننت أنه قد بدا له، فقلت: يا أبا محمد هلا أرسلت إلى فأتيتك، قال: لا أنت أحق أن تؤتى، قلت: فما تأمرنى، قال: رأيتك رجلا عزبا قد تزوجت فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك، فإذا هى قائمة خلفه فى طوله ثم دفعها فى الباب ورد الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب ثم صعدت إلى السطح فناديت الجيران، فجاءونى وقالوا: ما شأنك؟ فقلت: زوجنى سعيد بن المسيب اليوم ابنته، وقد جاب بها على غفلة وها هى فى الدار، فنزلوا إليها.

وبلغ أمى فجاءت وقالت: وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام، فأقمت ثلاثا ثم دخلت بها، فإذا هى من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله، وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهرا لا يأتينى ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر وهو فى حلقته، فسلمت عليه، فرد على ولم يكلمنى حتى انفض من فى المسجد، فلما لم يعد غيرى قال: ما حال ذلك الإنسان، قلت: هو على ما يحب الصديق ويكره العدو، قال: إن رابك شئ فالعصا، فانصرفت إلى منزلى.

---

(١) هو سعيد بن المسيّب بن حزن بن أبى وهب المخزومى القرشى (١٤-٩٤هـ/٦٣٧-٧١٥م)، هو إمام التابعين وسيد فقهاء المدينة فى عصره، روى عن عدد كبير من الصحابة وبعض أمهات المؤمنين، كان أعلم الناس بقضاء أبى بكر وعمر، رفض المبايعة لخلفاء بنى أمية فساءت علاقتهم به، كان زاهدا ورعا لا يخاف فى الحق أحدا، قال: ما فاتتنى التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة وما نظرت إلى قفا رجل فى الصلاة منذ خمسين سنة، لمحافظته على الصف الأول، توفى بالمدينة عام ٩٤هـ.

وكانت بنت سعيد المذكورة خطبها عبد الملك بن مروان لابنه الوليد حين ولاه العهد، فأبى سعيد أن يزوجه. فلم يزل عبد الملك يحتال على سعيد حتى ضربه فى يوم بارد وصب عليه الماء. قال يحى بن سعيد: كتب هشام بن اسماعيل والى المدينة إلى عبد الملك بن مروان: أن أهل المدينة قد أطبقوا على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد بن المسيب، فكتب: أن أعرضه على السيف، فإن مضى (رفض) فاجلده خمسين جلدة وطف به أسواق المدينة.

فلما قدم الكتاب على الوالى دخل سليمان بن يسار وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله على سعيد بن المسيب وقالوا: جئناك فى أمر، قد قدم كتاب عبد الملك إن لم تبايع ضربت عنقك، ونحن نعرض عليك خصالاً ثلاثا، فأعطنا إحداهن. فإن الوالى قد قبل منك أن يقرأ عليك الكتاب فلا تقل لا ولا تقل نعم، قال: يقول الناس بايع سعيد بن المسيب، ما أنا بفاعل، وكان إذا قال لا لم يستطيعوا أن يقولوا نعم. قالوا: فتجلس فى بيتك ولا تخرج إلى الصلاة أياما فإنه يقبل منك إذا طلبك من مجلسك فلم يجدك، قال: فأنا أسمع الأذان فوق أذنى حى على الصلاة، حى على الصلاة، ما أنا بفاعل. قالوا: فانتقل من مجلسك إلى غيره فإنه يرسل إلى مجلسك فإن لم يجدك أمسك عنك، قال: أفرقا من مخلوق، ما أنا بمتقدم شبرا ولا متأخر.

فخرجوا وخرج إلى صلاة الظهر، فجلس فى مجلسه الذى كان يجلس فيه. فلما صلى الوالى بعث إليه فأتى فقال: إن أمير المؤمنين كتب يأمرنا إن لم تبايع ضربنا عنقك، قال: نهى رسول الله عن بيعتين، فلما رآه لم يجب أخرج إلى السدة فمدت عنقه وسلت السيوف، فلما رآه قد مضى أمر به فجرد فإذا عليه ثياب شعر، فقال: لو علمت ذلك ما اشتهرت بهذا الشأن، فضربه خمسين سوطا ثم طاف به أسواق المدينة. فلما ردوه والناس منصرفون من صلاة العصر قال: إن هذه لوجوه ما نظرت إليها منذ أربعين سنة، ومنعوا الناس أن يجالسوه. فكان من ورعه إذا جاء إليه أحد يقول له: قم من عندى، كراهية أن يضرب بسببه.

من كتاب (وفيات الأعيان) لابن خلكان.

من فراسة ابن طولون

انصرف يوما أحمد بن طولون[1] من الصيد. فاجتاز على شارع الحمراء فتأمل دارا تبنى هناك. فوقعت عينيه على بعض الرقاصين (البنائين). فأمر بأخذه فقبض عليه. ووافوا به إلى الميدان. فلما جلس أمر بإحضاره. فلما حضر أمر بإحضار السياط والعقابين.

فلما شد صاح: أيها الأمير. لا تعجل على من قبل أن تسألني. وتعلم ما عندى. فقال: صدق. حلوه. فلما حل قال له: أدن. فلما دنا قال له: عرفنى خبرك. واصدقنى تنج منى. قال: نعم ايها الأمير أنا جاسوس للموفق[2]. وكانت معى كتب ففرقتها على أصحابها. فوعدونى بكتب الجواب عنها. فعملت رقاصا ليستتر أمرى. وأسمع وأنا فى أواسط الناس من أحوال البلد وأخبار الأمير ما أحفظه. حتى أذكره عند عودتى لمن أنفذنى. كما يلزم من نصب بهذا النصب.

فقال له: صدقت. فعرفنى من أصحاب الكتب. فعرفه بهم واحدا واحدا. ووكل به من أخرجه عن البلد من وقته. وقال له: قل له (أى للموفق) قد أطلعنا الله عز وجل على ما سترته. وأردت أذيتنا به. وأظفرنا ونصرنا. ولم يضرنا فعلك والحمد لله.

فلما كان الليل قبض على أولئك القوم أصحاب الكتب كلهم. فمنهم من غرقه. ومنهم من طم عليه الحفر. فقال له موسى بن طونيق وكان خصيصا به: أيها الأمير. كيف علمت أن هذا الرقاص جاسوس؟

قال: لمحته على الأسقالة (السقالة) وعلى كتفه قصرية الطين. ورأيت تكة

---

(١) هو أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر والشام، وهى أول دولة مستقلة عن الخلافة الإسلامية فى مصر. كانت فترة حكمه بين عامى (٢٥٤-٢٧٠هـ/٨٦٨-٨٨٤م)، أصله تركيا تعاقبت أسرته فى حكم مصر ثمانية وثلاثين عاماً. بنى مدينة القطائع وجعلها عاصمة لمصر بعد أن ضاقت مدينتى الفسطاط والعسكر، أبرز أعماله المعمارية مسجده المسمى باسمه فى حى الصليبة بالقاهرة. أنشأه عام ٢٦٥ هـ. وهو أقدم المساجد القائمة على حالتها الأصلية فى مصر وأكبر مساجدها قاطبة إذ تبلغ مساحته ستة أفدنة ونصف. توفى عام ٢٧٠هـ وخلفه ابنه خمارويه فى الحكم.

(٢) هو محمد بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد. الملقب بالموفق بالله. هو أمير عباسى وأخو الخليفة العباسى المعتمد على الله (٢٥٦-٢٧٨هـ/٨٧٠-٨٩٢م)، استعان به الخليفة المعتمد حين تولى الخلافة لمواجهة الأخطار التى تحيق بالدولة فولاه ولاية العهد، ازداد نفوذه فى الدولة العباسية على نفوذ أخيه فأصبح صاحب الأمر والنهى فى الخلافة، ساءت علاقته بأحمد بن طولون منذ عام ٢٦٢هـ وبدأ النزاع بينهما، وأخذ الموفق يعين الولاة على الشام ومصر لكنهم أخفقوا فى الوصول إلى الولاية وإخراج ابن طولون منها. توفى فى بغداد فى خلافة أخيه المعتمد عام ٢٧٨هـ/٨٩١م.

أرمنى[1] فأنكرت ذلك وقلت: رقاص لا تكون تكته إلا خيطا أو كتانا، فقبضت عليه، وكان ما شاهدت منه. قال له: أحسن الله توفيق الأمير.

من كتاب (سيرة أحمد بن طولون) للبلوى.

□□□

(١) هى نوع فاخر من أنواع التكك التى تعقد بها السراويل فى العصر الإسلامى.

من ينجو من سيف الحجاج ؟!

الأصمعى قال: بعث الحجاج[1] إلى يحيى بن يعمر، فقال له: أنت الذى تقول إنّ الحسن بن على ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله لتأتينى بالمخرج أو لأضربن عنقك. فقالت له: فإن أتيت بالمخرج فأنا آمن؟ قال: نعم. قال له: اقرأ قوله: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾[2] فمن أقرب: عيسى إلى إبراهيم، وما هو ابن ابنته. أو الحسن إلى محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال الحجاج: فوالله لكأنى ما قرأت هذه الآية قط. وولاه قضاء بلد فلم يزل بها قاضيا حتى مات.

محمد بن المنتشر بن الأجدع الهمدانى قال: دفع إلي الحجاج رجلا ذميا وأمرنى بالتشديد عليه والإستخراج منه، فلما انطلقت به. قال لى: يا محمد، إن لك لشرفا ودينا، وإنى لا أعطى على القسر(الإكراه) شيئا فاستأذنى وارفق بي. فقال: ففعلت. فأدى إلى فى أسبوع خمسمائة ألف. فبلغ ذلك الحجاج فأغضبه، فانتزعه من يدى ودفعه إلى الذى كان يتولى له العذاب، فدق يديه ورجليه، ولم يعطهم شيئا.

قال محمد بن المنتشر: فإنى لسائر يوما فى السوق، إذا صائح بى يا محمد، فالتفت، فإذا أنا به معرضا على حمار مدقوق اليدين والرجلين. فخفت الحجاج إن أتيته وتذممت منه. فملت إليه. فقال لى: إنك وليت منى ما ولى هؤلاء، فرفقت بى وأحسنت إلى، وإنهم صنعوا ما ترى، ولم أعطهم شيئا ولى خمسمائة ألف عند فلان فخذها مكافأة لما أحسنت إلى.

فقلت: ما كنت لآخذ منك على معروفى أجرا. ولا لأراك على هذه الحال شيئا. قال:

---

(١) هو أبو محمد الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى، ولد بالطائف فى عام الجماعة عام ٤١هـ، كان فى مطلع حياته معلما للقرآن والحديث. إنتقل إلى الشام والتحق بشرطة الإمارة حيث برز اسمه ولمع نجمه فانتقل إلى خدمة الخليفة عبد الملك بن مروان، أطلقه عبد الملك لمحاربة عبد الله بن الزبير الذى سيطر على معظم أقطار الخلافة. فاستطاع القضاء عليه نهائيا عام ٧٣هـ حيث حاصره فى الحرم المكى وضربه بالمنجنيق وقتله بعد أن هدم الكعبة. وبعدها تولى إمارة الحجاز ثم إمارة العراق إلى أن مات. بنى مدينة واسط فى العراق وكان وراء الكثير من فتوح البلدان فى عهد عبد الملك وابنه الوليد. إشتهر بكثرة سفكه للدماء لكنه قال قبل موته: اللهم اغفر لى فإن الناس يزعمون أنك لا تفعل. توفى فى ليلة السابع والعشرين من رمضان عام ٩٥ هـ

(٢) الآيات ٨٣ : ٨٥ سورة الأنعام

فاسمع منى حديثا أحدثك به حدثنيه بعض أهل دينك عن نبيك صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إذا رضى الله عن قوم أنزل عليهم المطر فى وقته. وجعل المال فى سمحائهم. واستعمل عليهم خيارهم. وإذا سخط على قوم أنزل عليهم المطر فى غير وقته، وجعل المال فى بخلائهم. واستعمل عليهم شرارهم" فانصرفت. فما وضعت ثوبى حتى أتانى رسول الحجاج. فسرت إليه. فألفيته جالسا على فراشه والسيف مصلت بيده. فقال لى: أدن. فدنوت شيئا. ثم قال لى: ادن. فدنوت شيئا. ثم قال لى الثالثة: ادن. لا أب لك! فقلت: ما بى إلى الدنو من حاجة. وفى يد الأمير ما أرى. فضحك وأغمد سيفه. وقال: اجلس. ما كان من حديث الخبيث؟

فقلت له أيها الأمير، والله ما غششتك منذ استنصحتنى. ولا كذبتك منذ استخبرتنى. ولا خنتك منذ ائتمنتنى. ثم حدثته. فلما صرت إلى ذكر الرجل الذى المال عنده اعرض عنى بوجهه. وأومأ إلى بيده. وقال: لا تسمه. ثم قال: إن للخبيث نفسا وقد سمع الأحاديث.

أتى الحجاج بأسرى فأمر بقتلهم. فقال رجل منهم: لا جزاك الله يا حجاج عن السنة خيرا. فإن الله تعالى يقول: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[1]، فهذا قول الله فى كتابه. وقد قال شاعركم فيما وصف به قومه من مكارم الأخلاق:

وما نقتل الأسرى ولكن نفكهم إذا أثقل الأعناق حمل القلائد

فقال الحجاج: ويحكم، أعجزتم أن تخبرونى بما أخبرنى هذا المنافق، وأمسك عمن بقى.

أتى الحجاج بحرورية، فقال لأصحابه: ما تقولون فى هذه؟ قالوا: اقتلها أصلح الله الأمير، ونكل بها غيرها. فتبسمت الحرورية. فقال لها: لم تبسمت؟ فقالت: لقد كان وزراء أخيك فرعون خيرا من وزرائك يا حجاج. استشارهم فى قتل موسى فقالوا: أرجه وأخاه. وهؤلاء يأمرونك بتعجيل قتللا. فضحك الحجاج وأمر بإطلاقها..

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى.

□□□

(١) الآية ٤ سورة محمد

من حيل المعتضد بالله

كان من أكبر مناوئى المعتضد بالله[1]. من المتغلبين المجاورين له وأشدهم عليه البربر صنهاجة وبنو برزال (قبائل بربرية) الذين بقرمونة وأعمالها من نواحى إشبيلية، فلم يزل يصرف الحيلة تارة، ويجهز الجيوش أخرى إلى أن استزلهم ففرق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصغت له أموره.

كان له عين بقرمونة يكتب له أخبار البربر، بلغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذى جعله عينا له بقرمونة كتابا فى بعض أمره، أن استدعى رجلا من بادية إشبيلة شديد البله كثير الغفلة، وقال له: اخلع ثيابك وألبسه جبة جعل فى جيبها كتابا وخاط عليه وقال له: اخرج إلى قرمونة. فإذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد وقف حيث يقف أصحاب الحطب، ولا تبعها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذى بقرمونة.

فخرج البدوى كما أمره المعتضد. فلما قرب من قرمونة جمع حزمة من الحطب، ولم يكن قبل هذا يعانى جمعه، فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد، ووقف فى موقف الحطابين، فجعل الناس يمرون عليه ويسومون منه حزمته، فإذا قال لا أبيعها إلا بخمسة دراهم، ضحك من يسمع هذا القول منه ومر عنه، فلم يزل كذلك إلى أن أجنه الليل والناس يسخرون منه، فبعضهم يقول: هذا أبنوس ويقول الآخر: لا بل هو عود هندى، وما أشبه هذا.

حتى مر به صاحب المعتضد فقال له: بكم تبيع حزمتك هذه؟ فقال الرجل: بخمسة دراهم، فقال: قد اشتريتها فاحملها إلى البيت، فقام يحملها والرجل بين يديه، حتى بلغ بيته فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة دراهم، فلما أخذها وهم بالانصراف، قال له: أين تريد فى هذا الوقت وقد علمت خوف الطريق، فبت الليلة عندى فإذا أصبحت رجعت

---

(١) هو عباد بن محمد بن إسماعيل بن عباد اللخمى الملقب بالمعتضد بالله، الملك الشاعر، هو من أسرة بنى عباد اللخمية التى حكمت أشبيلية وقرطبة، وهى من أعظم الأسر الحاكمة فى الأندلس آنذاك ومن أشهر ملوك الطوائف، ولد عام ٤٠٤هـ، ولى الملك عام ٤٣٣هـ بعد وفاة أبيه، طمح فى الاستيلاء على كامل الأندلس، لكنه استطاع ضم مدن الغرب الأندلسى إلى ملكه مثل شلب وشنت برية ولبلة وشلطيش وجبل عيون وغيرها، توفى بإشبيلية عام ٤٦١هـ/١٠٦٩م.

إلى منزلـك. فأجابـه. فأدخله البيت وقدم له طعاما وسـأله كأنه لا يعرفه. من أين أنت؟ فقـال: أنا من بادية إشـبيلية. قال: يا أخى مـا الذى جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمت نكد البربر وشـؤمهم وهوان الدماء عليهم، فقـال: حملنى على هذا الحاجة. ولم يظهر له أن المعتضد أرسله.

فلـم يزل الرجل يحادثـه إلى أن أخذه النوم، فلما رأى عليـه النوم قال له: تجرد من ثوبـك هذا فهو أهنأ لنومك وأروح لجسـمك، فتجرد الرجل ونـام. وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبها واسـتخرج الكتاب فقرأه وكتـب جوابه وجعله فى جيب الجبة وخاط عليـه كمـا كان، فلما أصبح الرجل لبس جبته ورجع إلى إشـبيليه وقصد باب دار الإمارة واسـتأذن. فأدخل على المعتضد فقال له: اخلع تلك الجبة وكسـاه ثيابا حسانا، فرح بها البدوى وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ولم يفهم فيم ذهب ولا بما جاء، وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمم ما أراد من أمره.

من كتاب (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد المراكشى

□□□

عبقرية قتيبة الحربية

وكان على خراسان من قبل الحجاج قتيبة بن مسلم الباهلى[1]. فكتب إليه الحجاج يأمره بعبور النهر - نهر بلخ - وأن يفتح تلك البلاد. فاستعد قتيبة، وسار فى المفازة التى بين مدينة مرو وبين مدينة آمويه، وهى ذات رمال وغضى، فصار إلى آمويه، ثم عبر النهر وسار إلى بخارى.

وكان ملك تلك الأرضين يسمى صول وكان ملكه على جميع ما وراء النهر. فلقيه الملك، فحاربه قتيبة، فهزمه، وهرب صول نحو الصانيان (الصين). فاحتوى قتيبة على بخارى وحيزها، فولى عليها رجلا. وسار حتى وافى بلاد السند، فأناخ على مدينتها العظمى، وهى سمرقند، فحاصرها أشهرا. فوجه إليه دهقانها: إنك لو أقمت على مدينتى هذه عمرك لم تصل إليها، لأننا نجد فى كتب آبائنا، أنه لا يقدر عليها إلا رجل اسمه بالان، لست إياه، فامض لشأنك.

فزعموا أن قتيبة احتال لما يئس من مكابرتها، فهيأ صناديق، وجعل لها أبوابا من أسافلها، تغلق من الداخل، وتفتح، وجعل فى كل صندوق رجلا مستلئما، معه سيفه، وأقفل أبوابها العليا. ثم أرسل إلى الدهقان: أما إذا كان هذا هكذا، فإنى راحل عنك إلى الصانيان وناحيتها، ومعى فضول أموال وسلاح، فوادعنى، واحرز هذه الصناديق عندك إلى عودى إن سلمت. فأجابه إلى ذلك، وتقدم قتيبة إلى الرجال أن يفتحوا أبواب الصناديق فى جوف الليل، فيخرجوا، ثم يصيروا إلى باب المدينة فيفتحوه. وأمر الدهقان بالصناديق، فأدخلت المدينة. فلما جن الليل، وهدأ الناس خرج الرجال مستلئمين، معهم السيوف لايستقبلهم أحد إلا قتلوه، حتى أتوا باب المدينة، فقتلوا الحرس، وفتحوا الباب.

---

(١) هو قتيبة بن مسلم بن عمرو بن حصين الباهلي. من أشهر قادة الفتح الإسلامى فى آسيا الوسطى فى القرن الأول الهجرى. كان أبوه مسلم بن عمرو من أصحاب مصعب بن الزبير والى العراق من قبل أخيه أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير وقاتل معه فى حربه ضد عبد الملك بن مروان. ولد عام ٤٩هـ بالعراق. نشأ منذ نعومة أظفاره على ظهور الخيل محبا للقتال والفروسية، اشترك منذ صغره فى حملات الفتوحات الإسلامية المنطلقة من العراق لفتح الشرق فلفت إليه الأنظار بشجاعته وموهبته الحربية والقيادية الكبيرة، أما فتوحاته: فكانت خوارزم وسجستان وسمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر حتى أسوار الصين. استشهد عام ٩٦هـ ولم يتجاوز الثامنة والأربعين من العمر.

ودخـل قتيبة بالجيش. ووقعـت الواقعة، وهرب الدهقان فى سـرب. فلحق بالملك، وصـارت سمرقند فى قبضة قتيبة، فخلف عليها رجلا. وسـار حتى أتى الصانيان، فهرب الملـك منهـم حتى صار فى بلاد الـترك، ووغل فيها. وخلى المملكـة لقتيبة. فدخل قتيبة الصغانيان، ووجه عماله إلى كش ونسف، وافتتح جميع ما وراء النهر، وجميع تتارستان، ولم يبق من خراسان شىء إلا افتتحه.

من كتاب (الأخبار الطوال) لأبى حنيفة الدينورى

□□□

بين تيمورلنك وعلماء الإسلام

قضى الله تعالى أن السلطان فرج بن برقوق[1] سافر إلى الشام ومعه القضاة الأربعة وغيرهم من الأعيان لدفع تيمورلنك عن البلاد فلم يستطع شيئا، وهزم إلى مصر وتفرقت العساكر، وأخذ القضاة والعلماء أسارى ومن جملتهم قاضي القضاة أبا زيد عبد الرحمن بن خلدون[2] الحضرمي المالكي، صاحب كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.

فإنه كان من جملة القضاة الحاضرين في الهزيمة، فلما أدخلوا على تيمورلنك قال لهم ابن خلدون: قدموني للكلام تنجوا إن شاء الله تعالى وإلا فأنتم أخبر، فقدموه وعليه زي المغاربة، فلما رآه تيمورلنك قال: ما أنت من هذه البلاد، وتكلم معه فخلبه ابن خلدون بلسانه وكان آية الله الباهرة، ثم قال لتيمورلنك: إني ألفت كتابا في تاريخ العالم ثم قال له تيمورلنك: كيف ساغ لك أن تذكرني فيه وتذكر بختنصر مع إننا خربنا العالم، فقال له ابن خلدون: أفعالكما ألحقتكما بالذكر مع ذوي المراتب الجسيمة، فأعجبه ذلك.

وقيل أنه لما أنس بابن خلدون قال له: يا خوند[3] ما أسفى إلا على كتاب ألفته في التاريخ وأنفقت فيه أيام عمري وقد تركته بمصر، وأن عمري الماضي ذهب ضياعا حيث لم يكن في خدمتك وتحت ظل دولتك، والآن اذهب فآتي بهذا الكتاب وأرجع سريعا حتى

---

(١) هو الملك الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥ هـ/١٣٩٩-١٤١٢م)، السلطان المملوكي السادس والعشرين، والثالث في دولة المماليك الجراكسة بمصر والشام، تولى يوم وفاة والده السلطان برقوق عام ٨٠١ هـ وهو يبلغ من العمر ١٣ عاما، تنحى عن العرش عام ٨٠٨هـ ثم عاد إليه، سادت الفتن والاضطرابات في عهده وحدث قحط ووباء مما أدى إلى وفاة ثلث سكان مصر، ثار ضده أمراء سوريا بزعامة الأمير شيخ الذي هزم السلطان في بعلبك واستولى على القاهرة وانتهى الأمر بمقتل السلطان، وتولى مكانه الخليفة العباسي المستعين بالله كحل مؤقت عام ٨١٥ هـ/١٤١٢م.

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (٧٣٢- ٨٠٨ هـ/١٣٣٢-١٤٠٦م)، ولد في تونس خلال العهد الحفصي لكن أصل عائلته من إشبيليه بالأندلس، هو مؤرخ وفقيه وعالم رياضيات وفلكي وخبير عسكري، شغل أجداده في الأندلس والمغرب مناصب سياسية ودينية هامة، قضى معظم حياته في تونس والمغرب، عمل بالتدريس في جامعة الزيتونة بتونس وجامعة القرويين بفاس بالمغرب ثم بالجامع الأزهر بالقاهرة، وفي آخر حياته تولى القضاء المالكي بمصر، يعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع في مقدمة كتابه الشهير (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، توفي بالقاهرة عام ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ودفن بمقابر الصوفية عند باب النصر.

(٣) هي كلمة ذات أصل تركي وتعني (سيد)، استخدمت في العصر المملوكي ثم في العصر العثماني، وهي تفيد الاحترام ويخاطب بها الذكور والإناث على السواء.

أمــوت فى خدمتك، فأذن له، فذهب ولم يعــد إليه. وقال بعض العلماء إنه لم ينجُ من يد ذلك الجبار أحد من العلماء غير ابن خلدون ورجل آخر.

وحكى غير واحد أن تيمورلنك لما أخذ حلب على الوجه المشهور فى كتب التاريخ جمع العلمــاء فقــال لهم على عادته فى التعنت: قتل منا ومنكــم جماعة، فمن الذى فى الجنة قتلانا أو قتلاكم؟ وكان مراده إبراز سبب لقتلهم، لأنهم إن قالوا أحد الأمرين هلكوا، فقال بعض العلماء وأظنه ابن الشــحنة: دعونى أجبــه وإلا هلكتم، فتركوه، فقال له: يا خوند هذا السؤال أجاب عنه رسول الله حين سئل عنه، فغضب تيمورلنك وقال: كيف يمكن أن يجيب عن هذا الســؤال رســول الله، ونحن لم نكن فى زمانه ؟ فقال العالم المذكور: روينا فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وســلم ســئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتــل ليذكر ويرى مكانه، فمن الذى فــى الجنة؟ فقال النبى: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو الذى فى الجنة، أو كما قال.

فتعجب تيمورلنك من هذا الجواب المفحم المسكت، وحق أن يعجب منه، فإن هذا من الأجوبــة التى يقل نظيرها، وفيها المخلص علــى كل حال بالإنصاف، وقد وفق الله تعالى هــذا العالم لهذا الجواب حتى يتخلص على يده أولئــك الأقوام من الطاغية الجبار العنيد الذى جعل الله تعالى فتنته فى الإسلام وفتنة جنكيزخان وأولاده من أعظم الفتن التى وهى بها المسلمون.

من كتاب (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) للمقرى التلمسانى.

□□□

وفاة عبد الرحمن الأوسط

قال الفقيه محمد بن وضاح: احتجب الأمير عبد الرحمن بن الحكم[1] عن الناس قبل موته مدة ثلاثة أعوام أو نحوها من أجل علة أصابته طالت به واشتدت عليه. فحمته الحركة. وهدت قوته، وأحدثت عليه رقة فى نفسه، ووحشة فى خاطره، وشدة أسف على ما نغص عليه من عصارة ملكه.

فذكر أنه قال يوما لأكابر خدمته الخاصة، وقد حفوه فى مرضه، وفيهم سعدون زعيمهم الذى اختصه بعد مهلك حظيه (فتاه) نصر ومن يليه: يا بنى! - وبذلك كان يخاطبهم مستلطفا لهم ومرفقا بهم - لقد اشتقت أن أعاين ضوء الدنيا وفسحة الأرض، إذ قد حميت عن الخروج إليها، فلعلنى أعلو مرقبة يسافر بصرى فيها، فأتسلى بالنظر إلى بسيطها، وجسمى مترع، فهل سبيل إلى ذلك ؟ فقالوا له: نعم يا مولانا.

وابتدر أكابرهم إنفاذ أمره، فأخذوا سرير خيزران لطيفا، وثيق الصنعة من أسرة الخلافة، ووضعوا فوقه فراشا خفيفا وثيرا حشوه الريش، أجلسوه فوقه، واحتملوه على أعناقهم، فصعدوا به إلى العلية على هيئته التى كانت من بنيان الأمير على باب الجنان من أبواب القصر القبلية، ثم هبطوا كذلك، فعانوا ذلك مرات يسوقون به الأمير فى تعاريج درجة الدائرة، حتى استوى لهم ذلك كما أرادوه، وأمنوا على الأمير المشقة فيه.

فوضعوا الأمير عبد الرحمن عند ذلك فوق ذلك الفراش، وشدوه من جهاته، واستوثقوا من اضطرابه، وصعدوا به هونا، حتى صيروه بأعلى تلك العلية، فأجلسوه صدرها، وأدنوه إلى الباب الأوسط منها. فأشرف على صحراء الربض قدام باب القصر، وسرح بصره فيها، ورآها إلى كدى القنبانية، ونظر إلى النهر أمامه، والسفن تجرى فيه صاعدة ونازلة. فاستروحت نفسه، وانشرح صدره، وشكر لخدمه ما تجشموه من إدنائه من مسرته وقال لهم: يا أولادى اجلسوا الآن حولي، وأنسونى بكلامكم، ومتعونى بأحاديثكم، ولا تنقبضوا

---

(١) هو الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية الداخل. لقب بعبد الرحمن الأوسط (٢٠٦- ٢٣٨هـ/٨٢١-٨٥٢م). هو رابع الأمراء الأمويين فى الأندلس، كان عهده مليئا بالثورات والاضطرابات التى تصدى لها بحزم وقوة، عدت سنوات حكمه من أزهى سنوات الحكم الإسلامى فى الأندلس فعمت الرفاهية وازدهرت العلوم والفنون والصناعة والتجارة، أحرز عدة انتصارات على النصارى فى الشمال حتى فرق شملهم وأضعف قوتهم. توفى بقرطبة عام ٢٣٨ هـ.

عنى بشـــيء مما تتحدثون به بينكم إذا انفردتم. كيما أشـــتغل بذلك عما أقاسيه من علتى. ففعلوا. وأنس هو بذلك وانبسط. وقطع أكثر نهاره فى تلك العلية.

ودنـــا المســـاء. فدعوه إلى النزول إلى مجلســـه. فبينما يتهيأ لذلـــك. إذ وقعت عينه فى الصحراء قدامه على قطيع شياه وهى ترعى فى منحدرها. ولم ير معها راع يسوقها. فقال لهم: يا أولادى ما بال هذه الغنم مهملة ولا راعى لها؟ فتأملوا فقالوا: يا مولانا هاك راعيها قاعد إلى جانبها مستريح فى فيء جنان طروب تجاهه. يتملى فى انحدارها.

فقال: لعا!. ثم أثبت بصره فى تلك الغنم. فتنفس الصعداء. وأرسل عينيه يبكى حتى اخضلت لحيته. وقال: وددت والله أن أكون مكان ذلك الراعى ولا أنشب فيما نشبت من الدنيا ولا أتقلد من أمور الناس ما تقلدت! ثم استغفر الله كثيرا ودعاه. ونزلوا به إلى مهاده. فلم تطل فيما بعد نهاره(أى توفى).

من كتاب (المقتبس من أنباء الأندلس) لابن حيان القرطبى.

□□□

المهتدى زاهد بنى العباس

حين وصل المهتدى[1] من بغداد إلى سامراء وافاها يوم الأربعاء تاسع وعشرين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، وأرادوا أن يبايعوه، قال: لا أفعل حتى أسمع بأذنى خلع المعتز نفسه. فالمثل السائر: (لا يجتمع فحلان فى شول ولا سيفان فى غمد). فأدخلوه إليه فسلم عليه بالخلافة وجلس بين يديه. فقالوا له: ارتفع (أى ارتق كرسى الخلافة). قال: لا أرتفع إلا أن يرفعنى الله بخلافته. ثم قال له: يا أمير المؤمنين خلعت أمر البرية عن عنقك طوعا ورغبة، وكل ما كانت لك فى عنقه بيعة فهو برىء منها ؟ فقال من الخوف: نعم! فقال: بارك الله لنا ولك يا أبا عبد الله. ثم ارتفع حينئذ إلى صدر المجلس وبايعه الناس واستوزر (أى جعله وزيرا) أبا صالح جعفر بن محمد بن عمار.

كان المهتدى زاهدا ورعا صواما قواما، لم تعرف له ذلة. وكان سهل الحجاب، كريم الطبع، يخاطب أصحاب الحوائج بنفسه ويجلس للمظالم بنفسه، وكان يلبس القميص الصوف الخشن تحت ثيابه على جلده، وكان يقول: لو لم يكن الزهد فى الدنيا والإيثار بما عند الله من طبعى لتكلفته وتصنعته. فإن منصبى يقتضيه، فإنى خليفة الله فى أرضه، والقائم مقام رسوله النائب عنه فى أمته. وإنى لأستحى أن يكون لبنى مروان عمر بن عبد العزيز، وليس لبنى العباس مثله وهم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه ألزم وإليه أقرب.

وكان الناس يروون عن سفيان الثورى أنه كان يقول (الخلفاء الراشدون خمسة، ويعد فيهم عمر بن عبد العزيز)، ثم أجمع الناس فى أيام المهتدى من فقيه ومقرئ وزاهد وصاحب حديث أن السادس هو المهتدى بالله.

واتفق أنه سمع يوما، وهو بأعلى القصر يشرف على الناس وهم لا يرونه، رجلا يقول لرجل: نصبت ميذاب سطحك فى ملكى ؟ بينى وبينك أمير المؤمنين. فسجد وبكى ورفع رأسه وقال: الحمد لله الذى أرانى الدنيا هكذا. هذا والله قد طيب على الموت.

وحكى أن رجلا من الرملة تظلم إلى المهتدى من عاملها، فأمر بإنصافه، وكتب له كتابا

(١) هو أبو إسحاق محمد المهتدى بالله بن الواثق، الخليفة الرابع عشر من خلفاء بنى العباس ببغداد (٢٥٥- ٢٥٦ هـ/٨٦٩ - ٨٧٠ م)، تولى الخلافة سنة واحدة حاول فيها الاقتداء بعمر بن عبد العزيز فى عدله وزهده. فعده الفقهاء والعامة الخليفة الراشد السادس، حاول خلال هذه السنة أن يعيد هيبة الخلافة ومكانتها وأن يوقف استبداد الأتراك وسيطرتهم، لكنهم تمكنوا منه قبل القضاء عليهم فقتلوه فى رجب سنة ٢٥٦ هـ.

إليه. فأخذه المهتدى ووقع فيه أسطرا بخطه وختمه بيده وسلمه إلى الرجل وهو يدعو له. ورأى الرجل فى ذلك المجلس من هذا الفن وشاهد من رحمة المهتدى وبره بالرعية وتولية أمورهم بنفسه مالم ير مثله. فاستخفه الطرب لذلك حتى سقط مغشيا عليه. فنهض المهتدى يعاينه بنفسه. فلما أفاق قال له: ما شأنك؟ أبقيت لك حاجة؟ قال: لا والله ولكنى ما رجوت أن أعيش حتى أرى هذا العدل. قال له: كم يلزمك منذ خرجت من بلدك؟

قال: أنفقت عشرين دينارا. قال المهتدى: إنا لله! كان الواجب علينا أن ننصفك وأنت فى بلدك ولا نحوجك إلى تعب وكلفة وإذ لم يتفق ذلك. فهذه خمسون دينارا من بيت المسلمين فإنى لا أملك مالا. فخذها لنفقتك قادما وراجعا. واجعلنا فى حل من تعبك وتأخرحقك. قال: فبكى الرجل حتى غشى عليه ثانيا. وأجهش بعضهم بالبكاء. وبهت البعض، فقال واحد من الجماعة: يا أمير المؤمنين أنت والله كما قال الأعشى:

حكمتموه فقضى بينكم أبلج مثل القمر الزاهر
لا يقبل الرشوة فى حكمه ولا يبالى غبن الخاسر

فقال المهتدى: أما أنت فأحسن الله جزاءك. وأما أنا فما رويت هذا الشعر ولا سمعت به. ولكنى أذكر قول الله عز وجل: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

فما بقى فى المجلس إلا من استغرق فى الدعاء والبكاء جهده. ودعا له بطول العمر ونفاذ الأمر.

من كتاب(الأنباء فى تاريخ الخلفاء) لابن العمرانى.

□□□

(١) الآية ٤٧ سورة الأنبياء.

خبر مقتل عمر

خرج عمر بن الخطاب (الخليفة الثانى ١٣-٢٣هـ/٦٣٤-٦٤٤م) يوما يطوف فى السوق فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة وكان نصرانيا. فقال: يا أمير المؤمنين أعنى على المغيرة بن شعبة فإن علىّ خراجا[1] كثيرا. قال: كم خراجك؟ قال: درهمان فى كل يوم، قال: وأيش صناعتك؟ قال: نجار. نقاش. حداد. قال: فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الأعمال. قد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أعمل رحا تطحن بالريح فعلت؟ قال: نعم. قال: فاعمل لى رحا. قال: لئن سلمت لأعملن لك رحا يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف عنه. فقال عمر رضى الله عنه: لقد توعدنى العبد آنفا.

قال: ثم انصرف عمر إلى منزله. فلما كان من الغد جاءه كعب الأحبار[2] فقال له: يا أمير المؤمنين أعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام. قال: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب الله عز وجل التوراة. قال عمر: آلله لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟ قال: اللهم لا ولكنى أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك. قال: وعمر لا يحس وجعا ولا ألما. فلما كان من الغد جاءه كعب فقال: ذهب يومان وبقى يوم وليلة. وهى تلك إلى صبحتها. قال: فلما كان الصبح خرج عمر إلى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فإذا استويت جاء هو فكبر. قال: ودخل أبو لؤلؤة فى الناس فى يده خنجر له رأسان نصابه فى وسطه. فضرب عمر ست ضربات إحداهن تحت سرته وهى التى قتلته. وقتل معه كليب بن أبى البكير الليثى وكان خلفه. فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال: أفى الناس عبد الرحمن بن عوف؟

(١) الخراج نوعان: خراج العنوة: وهو الخراج الذى يوضع على كل أرض فتحها المسلمون واستولوا عليها من الكفار عنوة (بالقتال)، والنوع الثانى: هو خراج الصلح وهو الخراج الذى يوضع على كل أرض صولح أهلها عليها. ويكون الخراج مرتبطا بالصلح الذى يتم الاتفاق عليه من المسلمين والطرف الآخر. فإن كان الصلح على أن الأرض للمسلمين وأقروا الكفار عليها مقابل خراج يدفعونه فإن هذا الخراج يبقى ماضيا إلى يوم القيامة. أما إن كان الصلح على أن الأرض لهم مع إقرارهم عليها بخراج. فإن هذا الخراج يكون بمقام الجزية يسقط عنهم بإسلامهم أو ببيعهم الأرض لمسلم. أما الخراج المقصود فى هذه الرواية فيعنى الجزية..

(٢) كان من يهود اليمن وصاحب معرفة وعلم كبير، أسلم فى عهد الخليفة عمر. حدث بالكثير من الروايات الإسرائيلية. وقد فسر الكثير من الآيات القرآنية استنادا على علمه الواسع بالتوراة وأخبار الأنبياء والسابقين لذلك أخذ مكانة كبيرة عند الخليفة خاصة عمر رضى الله عنه الذى جعله من مستشاريه. يروى أن عمر رضى الله عنه أرسل إلى كعب الأحبار فقال: يا كعب كيف تجد نعتى ؟ قال: أجد نعتك قرن من حديد. قال وما قرن من حديد؟ قال: أمير شديد لا تأخذه فى الله لومة لائم. قال ثم من؟ قال: ثم يكون من بعدك خليفة تقتله فئة.

قالــوا: نعم يا أمير المؤمنين هو ذا. قال: تقدم فصل بالناس. قال: فصلى عبد الرحمن بن عــوف وعمــر طريح، ثم احتمل فأدخل داره، ثم قال: يا عبد الله بن عمر اخرج فانظر من قتلنى. فقال: يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة. قال: الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل ســجد لله ســجدة واحدة.وكانت وفاته ليلة الأربعاء لثلاث ليال بقين من ذى الحجة ســنة ثلاث وعشــرين للهجرة. فدفن فى بيت عائشة رضى الله عنها مع النبى وأبى بكر.

من كتاب (تاريخ الطبرى) لابن جرير الطبرى.

□□□

معلم السلاطين آق شمس الدين

كان الشيخ (آق شمس الدين)[1] أستاذ السلطان (محمد الفاتح)[2] مهيبا لا يخشى سوى الله، لذا فإنه عند قدوم السلطان (محمد الفاتح) لزيارته، لا يقوم له من مجلسه. أما عند زيارته للسلطان (محمد الفاتح) فقد كان السلطان يقوم له من مجلسه توقيرا له، واحتراما ويجلسه بجانبه. وقد لاحظ ذلك وزار (أى وزراء) السلطان وحاشيته، لذا لم يملك الصدر الأعظم[3] (محمود باشا) من إبداء دهشته للسلطان فقال له: لا أدرى يا سلطانى العظيم، لم تقوم للشيخ (آق شمس الدين) عند زيارته لك، من دون سائر العلماء والشيوخ، فى الوقت الذى لا يقوم لك تعظيما عند زيارتك له؟!.

فأجابه السلطان: أنا أيضا لا أدرى السبب. ولكنى عندما أراه مقبلا على، لا أملك نفسى من القيام له. أما سائر العلماء والشيوخ، فإنى أراهم يرتجفون من حضورى، وتتلعثم ألسنتهم عندما يتحدثون معى، فى الوقت الذى أجد نفسى أتلعثم عند محادثتى الشيخ (آق شمس الدين).

وفى فتح القسطنطينية أراد السلطان أن يكون شيخه بجانبه أثناء الهجوم فأرسل إليه يستدعيه، لكن الشيخ كان قد طلب ألا يدخل عليه أحد الخيمة ومنع حراس الخيمة رسول السلطان من الدخول. وغضب محمد الفاتح وذهب بنفسه إلى خيمة الشيخ ليستدعيه. فمنع الحراس السلطان من دخول الخيمة بناء على أمر الشيخ. فأخذ الفاتح خنجره وشق جدار الخيمة فى جانب من جوانبها ونظر إلى الداخل فإذا شيخه ساجدا لله فى سجدة طويلة وعمامته متدحرجة من على رأسه وشعر رأسه الأبيض يتدلى على الأرض. ثم رأى السلطان

---

(١) هو محمد بن حمزة الدمشقى الرومي، شيخ ومعلم السلطان العثمانى محمد الفاتح وواحد من الأسباب المباشرة لفتح القسطنطينية. ارتحل مع والده إلى الروم. طلب فنون العلم وتبحر فيها وأصبح عالما من علماء الحضارة الإسلامية فى العصر العثمانى. يتصل نسبه بالخليفة الراشد أبى بكر الصديق. ولد فى دمشق عام ٧٩٢هـ/١٣٨٩م. درس فى أماسيا ثم فى حلب ثم فى أنقرة. توفى عام ١٤٥٩م.

(٢) هو السلطان محمد الثانى بن السلطان مراد الثاني. الملقب بالفاتح، سابع سلاطين الدولة العثمانية (٨٥٥ - ٨٨٦هـ/١٤٥١ - ١٤٨١م). حكم ما يقرب من ثلاثين عاما ضاعف خلالها مساحة الدولة العثمانية. أعظم إنجازاته على الإطلاق إسقاط الدولة البيزنطية وفتح عاصمتها القسطنطينية عام ٨٥٧هـ - ١٤٥٣م. مدحه النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (لتفتحن القسطنطينية على يد رجل. فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش) رواه أحمد. اشتهر بالعدل والعلم والتسامح فأصبح درة سلاطين الدولة العثمانية.

(٣) هو منصب اختصت به الدولة العثمانية، ويعتبر الصدر الأعظم بمثابة رئيسا للوزراء. فهو أعلى رأس فى الدولة بعد السلطان العثمانى. وقد انتهى هذا المنصب بسقوط الدولة العثمانية عام ١٩٢٤م.

شـيخه يقوم من سـجدته والدموع تنحدر على خديه، فقد كان يناجى ربه ويدعوه بإنزال النصر ويسأله النصر والفتح القريب.

وعاد السـلطان محمد (الفاتـح) عقب ذلك إلى مقر قيادته ونظر إلى الأسـوار المحاصرة فإذا بالجنود العثمانيين وقد أحدثوا ثغرات بالسـور تدفق منها الجنود إلى القسـطنطينية. ففـرح السـلطان بذلك وقال: ليس فرحى لفتح المدينة إنمـا فرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمنى.

ثم بعد يوم - من الفتح - جاء السـلطان إلى خيمة (آق شمس الدين) وهو مضطجع فلم يقم له، فقبل السلطان يده وقال له: جئتك لحاجة. قال: وما هىْ ؟ قال: أن أدخل الخلوة عندك. فأبى. فأبرم عليه السـلطان مرارا وهو يقول: لا. فغضب السلطان وقال: إنه يأتى إليك واحد من الأتراك فتدخله الخلوة بكلمة واحدة وأنا تأبى على. فقال الشيخ: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسـقط عندها السـلطنة من عينيك فتختل أمورها فيمقت الله علينا ذلك. والغرض من الخلوة تحصيل العدالة. فعليك أن تفعل كذا وكذا - وذكر له شيئا من النصائح - ثم أرسـل إليه ألف دينار فلم يقبل. ولما خرج السـلطان محمد قال لبعض من معه: ما قام الشيخ لى. فقال له: لعله شاهد فيك من الزهو بسبب هذا الفتح الذى لم يتيسر مثله للسلاطين العظام. فأراد بذلك أن يدفع عنك بعض الزهو.

من كتاب (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) للشوكانى.

❑❑❑

مخنث المدينة

قال محمد بن اسحاق: قيل لعمر بن عبد العزيز: إن فى المدينة مخنثا قد أفسد نساءها، فكتب إلى عامله أن يحمله إليه.

فحمل فأدخل عليه، فإذا شيخ خاضب اللحية والأطراف، معتجر، فدخل ومعه دف فى خريطة، فلما وقف بين يدى عمر صعد فيه النظر وصوبه، ثم قال: سوأة لهذه السن وهذه القامة.

ثم قال عمر: أتحفظ من المفصل شيئا؟

قال: نعم وما المفصل؟

قال: ويلك أتقرأ من القرآن شيئا؟

قال أقرأ (الحمد) وأخطئ فيها موضعين أو ثلاثة. وأقرأ (قل أعوذ برب الناس) وأخطئ فيها، وأقرأ (قل هو الله أحد) مثل الماء الجارى.

قال ضعوه فى الحبس ووكلوا به معلما يعلمه القرآن وما يجب عليه من الطهارة والصلاة، وأجروا عليه كل يوم درهما، وعلى معلمه ثلاثة، ولا يخرج من الحبس حتى يحفظ القرآن أجمع.

فكان كلما علم سورة نسى التى قبلها، فبعث رسولا إلى عمر فقال:

يا أمير المؤمنين وجه إلى من يحمل إليك ما أتعلمه أولا فأول؛ فإنى لا أقدر أن أحمله.

فقال عمر: ما أرى هذه الدراهم إلا لو أطعمناها جائعا أو كسونا بها عاريا كان أصلح، ثم دعا به فقال: اقرأ (يا أيها الكافرون).

فقال: أسأل الله العافية، أدخلت يدك فى الجراب فأخرجت شر ما فيه وأصعبه. فأمر - عمر - بوجئ عنقه ونفاه.

من كتاب (أخبار الظراف والمتماجنين) لابن الجوزى.

□□□

من العراق إلى الشام

حدثني أبي، أحسبه عن الهيثم بن عدي قال: لما كتب أبو بكر رضي الله عنه إلى خالد بن الوليد يأمره بالمسير إلى الشام واليا مكان أبي عبيدة بن الجراح[1]. أخذ على السماوة[2] حتى انتهى إلى قراقر[3]، وبين قراقر وسوى خمس ليال في مفازة[4]، فلم يعرف الطريق. فدل على رافع بن عميرة الطائي وكان دليلا خريتا(محنكا).

فقال لخالد: خلف الأثقال واسلك هذه المفازة إن كنت فاعلا، فكره خالد أن يخلف أحدا وقال: لا بد من أن نكون جميعا. فقال له رافع: والله إن الراكب الفرد ليخافهم على نفسه وما يسلكهم إلا مغرر مخاطر بنفسه، فكيف أنت بمن معك؟ فقال: لا بد من ذلك.

فقال الطائي لخالد: ابغني عشرين جزورا (جملا) مسان عظاما. ففعل. فظمأهن ثم سقاهن حتى روين ثم قطع مشافرهن وكممهن لئلا تجتر، ثم قال لخالد: سر بالخيول والأثقال فكلما نزلت منزلا نحرت من تلك الجزر أربعا، ثم أخذت ما في بطونهم من الماء فسقيته الخيل وشرب الناس مما تزودوا، ففعل.

فلما صار إلى آخر المفازة انقطع ذلك وجهد الناس وعطشت دوابهم، فقال له خالد: ويحك، ما عندك؟ قال: أدركت الري إن شاء الله، أنظروا هل تجدون شجر عوسج[5] على ظهر الطريق؟ فنظروا فوجدوهم فقال: احفروا في أصلهم، فحفروا فوجدوا عينا فشربوا منها وتزودوا، فقال رافع: والله ما وردت هذه الماء قط إلا مرة واحدة مع أبي وأنا غلام.

فقال راجز المسلمين في ذلك:

---

(١) هو من أكابر الصحابة وأمين هذه الأمة وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام وأحد العشرة المبشرين بالجنة، شارك في غزوات النبي وهو أحد القادة الأربعة الذين اختارهم الخليفة أبو بكر لفتح الشام، عينه الخليفة عمر قائدا عاما على جيوش الشام، شارك في معركة اليرموك تحت إمرة خالد بن الوليد. مات في طاعون عمواس بالشام عام ١٨ هـ.

(٢) السماوة: مدينة عراقية تقع جنوبي العراق على نهر الفرات، تبعد حوالي ٢٨٠كم جنوب غرب بغداد.

(٣) قراقر: موضع في بادية الشام بين العراق والشام.

(٤) مفازة: الصحراء المهلكة – الموضع المهلك.

(٥) العوسج: شجرة ذات أشواك من الفصيلة الباذنجانية، تنبت في الأراضي الجافة والحارة لأنها تعيش على القليل من الرطوبة، وهي شجرة معمرة يصل ارتفاعها إلى حوالي مترين.

لله در رافـــع أنـــى اهتـدى فـــوز مـــن قراقـر إلى ســوى

أرضـا إذا ســار بهـم الجـيش بـكى مـــا ســارهـم قبـلك مـن إنس أرى

من كتاب (عيون الأخبار) لابن قتيبة

❑❑❑

شاه رخ وكسوة الكعبة

اتفق أن شـــاه رخ بـــن تيمورلنك[1] صاحب هراة وسمرقند وبخـــارى وما والاها من بلاد العجم، طلب من الأشـــرف برسباى[2] أن يأذن له فى كسوة البيت لكونه نذر بذلك، فأبى الأشـــرف وخشـــن له فى الرد، وترددت الرسل بينهما مرارا وبالغ فى طلب ذلك ولو تكون الكســـوة التى يرســـلها من داخل الكعبة أو يرسلها إلى الأشرف وهو يرسل بها وفاء لنذره، وهو يمتنع محتجا بأجوبة أجاب بها عليه جماعة من المفتيين. ثم إن المترجم له (شاه رخ) أرســـل إلى برسباى جماعة زعم أنهم أشراف وعلى يدهم خلعة له، فاشتد غضبه من ذلك، ثم جلس بالإســـطبل السلطانى واستدعاهم، ثم أمر بالخلعة فمزقت وضربهم بحيث أشرف عظيمهم على الهلاك، ثم ألقوا منكسين فى فسقية ماء بالإسطبل والخدم ممسكون بأرجلهم يغمسونهم بالماء حتى أشرفوا على الهلاك، والسلطان مع ذلك يسب مرسلهم جهارا ويحط من قدره مع مزيد تغير لونه لشدة غضبه، ثم قال لهم وقد جئ بهم إلى بين يديه بعد ذلك: قولوا لشـــاه رخ الكلام الكثير من النســـاء وكلام الرجال لاسيما الملوك إنما هو فعل، وها قد أبدعت فيكم كسرا لحرمته، فإن كان له مادة وقوة فليتقدم.

فلما بلغ ذلك إليه ســـكت عن مطلوبه مدة حياة الأشـــرف، ولما استقر الملك الظاهر بعد الأشرف، أرسل إليه بهدايا وتحف وأظهر السرور بسلطنته، وذكر أنها دقت لذلك البشائر بهراة وزينت أياما، فأكرم الظاهر قصاده وأنعم عليهم. ثم أرســـل فى ســـنة ســـت وأربعين وثمان مائة يستأذن فى وفاء نذره. فأذن له حسما لمادة الشر ودفعا للفتنة فصعب ذلك على الأمراء والأعيان، فلم يلتفت الســـلطان إلى كلامهم. ووصل رســـله بها فى رمضان سنة ٨٤٨

---

(١) هو شاه رخ بن تيمورلنك أحد ملوك المغول التيموريين (٨٠٧ - ٨٥٠هـ/ ١٤٠٥ - ١٤٤٧م) حكم بعد موت أبيه تيمورلنك لكنه لم يكن مثله فى قوته وبطشه وسفكه للدماء. دانت له بلدان المشرق من إيران حتى ما وراء النهر، ترجع تسميته بهذا الاسم إلى أن خبر ولادته بلغ أباه تيمور وهو يلعب الشطرنج فأطلق عليه فى الحال اسم شاه رخ وتعنى ملك القلعة، توفى عام ٨٥٠هـ/١٤٤٧م.

(٢) هو الملك الأشرف سيف الدين برسباى السلطان الثانى والثلاثون لدولة المماليك فى مصر والشام (٨٢٥ - ٨٤١هـ/١٤٢٢ - ١٤٣٧م)، كان مملوكا للأمير دقماق المحمدى نائب ملطية، ثم أهداه سيده إلى السلطان الظاهر برقوق فأعتقه وجعله من جملة أمرائه، وبعد وفاة برقوق تقلب فى مناصب عدة فى عهد من خلفه من سلاطين حتى نجح فى اعتلاء عرش السلطنة عام ٨٢٥هـ، فأصبح السلطان الثامن فى دولة المماليك الجراكسة، من أهم انجازاته فتح جزيرة قبرص عام ٨٢٩ هـ - ١٤٢٦م بعد أن قام ملكها بطرس لوزينان بحملته الصليبية على الاسكندرية عام ٧٦٧هـ - ١٣٦٥م ثم على طرابلس عام ١٣٩٣م.

للهجرة فى نحو مائة نفس. منهم قاضى الملك وهو مشهور بالعلم ببلادهم، وتلقاهم الأمراء والقضاة والمباشرون وأنزلوا وأكرموا، ثم صعدوا بالكسوة وهدية فأمر أن يأخذها ناظر الكسوة بالقاهرة ويبعثها لتلبس من داخل البيت، وانصرفوا. فلما وصلوا باب القلعة أخذهم الرجم من العامة والسب واللعن وناهبوهم، وتألم السلطان لذلك وأمسك بعض المثيرين للفتنة وقطع أيدى جماعة منهم وضرب جماعة، وبالغ فى إكرامهم لجبر الخواطر. ومع ذلك تحرك شاه رخ للبلاد الشامية، فلما وصل النواحى السلطانية مات وذلك عام ٨٥٠ للهجرة، ويقال أن كسوة الكعبة كانت لا تساوى ألف دينار.

من كتاب (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) للشوكانى.

□□□